# من بلاغة الإعجاز القرآني: الوحدة الموضوعية لآي العقيدة الإسلامية – سورة القيامة أنموذجا –

أ. خالد مرزوق
جامعة حسيبة بن بوعلي - شلف
الجزائر

**ملخص البحث باللغة الانجليزية**

The aim of this study to the subject thematic unity of the Holy Quran in order to cover the face in the faces of the miracle , in that it deepens faith and reason to be proud of . That theory , which is not clear , but did not apply in this day and age , due to the lack of popularity of the concerns of applicants greatly in their Tafseers which stated therein . And are intended to show the different themes in the pattern one , so you find the Koran moves from one topic to another ; legislation to stories , and beliefs to the guidance and morals so that could meet all in one page from him without feeling from the reader who followed minimal change in the method or level or full consistency . The Resurrection as dealing with one theme ( the Baath and the penalty ), which is one of the pillars of faith Leahy truest testament to the application of this theory in the verses of the Islamic faith.

## تمهيد:

الحمد لله الواحد التواب، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبيّ الأوّاب، وعلى الآل والأصحاب ذوي الصدق والصواب، وبعد:

فما كان لجمهرة من العلماء أن يصنفوا تآليفهم في الإعجاز القرآني – سواء ممن أفردوا له كتبا مستقلة مخصوصة به، أم من تناولوه ضمن مباحث علوم القرآن– لولا أهميته البالغة في التعريف بعظمة هذا القرآن الكريم الذي ﴿**لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ**

حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[1]، وإثبات صدق نبوة محمد عليه الصلاة والسلام، ومن ثَمّ ليس لجميع البشر بعد عجزهم عن التحدي له سوى التسليم والإذعان لتلك العظمة إن طوعا أو كرها.

وما كان هذا القرآن أن يقتصر الإعجاز فيه على وجه واحد وحسب، بل من إعجازه أن يتعدى إعجازُهُ إلى أكثر من وجه، بما يتطلب الدهشة والإعجاب به حقا، ويعمق الإيمان به أكثر، ويدعو إلى الاعتزاز به أيما اعتزاز. فقد ذكر الزرقاني مثلا أربعة عشر وجها وتكلم عنها بإسهاب وتفصيل واسع[2]، وفي البرهان للزركشي اثنا عشر وجها [3]، وعند القاضي عياض أربعة وجوه [4]، كلها تقتضي تأملات واسعة لمن رغب العيش في كنف هذا الكتاب المجيد.

فإلى جانب تفرّده في الأسلوب وسموّ فصاحته وبيانه، والإخبار عن الغيوب والحوادث المستقبلية وغير ذلك، فإن عرض الموضوعات المختلفة في النسق الواحد لمن الجوانب التي تستدعي التنقيب في ملف الإعجاز، ذلك أنك تجد القرآن يتنقل من موضوع لآخر؛ من التشريع إلى القصص، ومن العقائد إلى التوجيه والأخلاق بحيث قد يجتمع ذلك كله في صفحة واحدة منه دونما شعور من القارئ الذي يتلوه بأدنى تغير في الأسلوب أو المستوى أو التناسق التام. ومن رام إجلاء هذه الحقيقة فدونه القرآن يقرأ منه ما يشاء فلا شك سوف يجد ذلك جليا لا مرية فيه. بل وأزيد من ذلك سيدرك عندئذ البون الشاسع بين ما اعتاد الكتّاب اتباعه في كتاباتهم لأبحاثهم من الترتيب والتبويب وبين ما احتفل به القرآن من الانتقال من بحث لآخر، إذ السرّ في ذلك أن القرآن له موضوع واحد يركز عليه دائما وفي جميع ما يعرض له من أحداث ومواقف، هو موضوع الهداية الربانية لتعريف الخلق بالخالق سبحانه، وبيان مهمة العبيد إزاء معبودهم الحق ..وذاك ما يُعرف بالوحدة الموضوعية في آيات القرآن التشريعية منها والعقيدية والأخلاقية. وهو ما جنحنا للخوض فيه بعض الشيء في صفحات معدودات مما سيأتي، على أن نخصص الوحدة الموضوعية بنوع واحد من آي القرآن؛ تلك المتضمنة لأصول العقيدة وما يتعلق بها من مسائل، آخذا بعين الاعتبار أنموذجا واحدا من سور القرآن ذا صلة بهذا الباب، تلكم هي سورة القيامة.

## أولا- مفهوم الوحدة الموضوعية ووجه الحاجة إليها.

### 1- مفهوم الوحدة الموضوعية:

الوحدة في اللغة من (وحد) و(وحّد) و(توحد)، وهو أصل واحد يدل على الانفراد، وتوحد برأيه تفرد به[5]. والوحدة: ضد الكثرة، وهي حالة ما يؤلف كلا عضويا، يقال (وحدة) عند اتفاق وتطابق تامين، وتشابه كامل، ووحد جعل واحدا، أي أخضع لنظام واحد، أو حشد وجمع جموعا غفيرة وألبها وأثارها[6].

والموضوعية: وصف لما هو موضوعي، والموضوعي ما هو متعلق بموضوع مستقل عن الفكر، والعكس ذاتي [7]. والموضوع: من وضع يضع وضعا، وهو أصل واحد يدل على الخفض للشيء وحطه. معنى ذلك أن الوضع ضد الرفع، يقال وضع فلان من فلان أي حط من قدره ودرجته، ووضع الشيء ألقاه من يده[8]. والموضوع: هو العناصر التي تكون مسألة أو مادة يتناولها اتفاق أو اختلاف ومن ذلك (موضوع الكلام) أي المادة التي يجري عليها.

فمن خلال ما ذكر يمكن تعريف (الوحدة الموضوعية) في اللغة بأنها: " إخضاع العناصر التي تكون مسألة أو مادة من بعد حشدها وجمعها، لنظام واحد، بحيث يظهر فيه اتفاق وتطابق تامين، وتشابه كامل".

أما حدها الاصطلاحي فهي: " أن يكون العمل الفني متماسكا إلى أبعد درجات التماسك، بحيث إن كل جزئية تفضي إلى التي تليها، ولا يمكن حذف جزئية واحدة لأن العمل الفني لا يستغني عنها، أو إضافة جزئية أخرى يفتقر إليها"[9].

إلا أن هذا التعريف عام يشمل الوحدة الموضوعية كأهم شرط من الشروط التي يجب توافرها في العمل الأدبي (يعني الفنون الأدبية المستحدثة في اللغة العربية كالقصة والمسرحية مثلا). وإيراد هذا التعريف هنا بغرض بيان التماسك العضوي، والتأكيد على الترابط الفني الدقيق، وليس في مقام المقارنة بين القرآن من جهة والفنون الأدبية من جهة أخرى.

وفي ضوء التعريف السابق يمكن القول بأن معنى الوحدة الموضوعية لكل سورة من القرآن الكريم أن آيات كل سورة تتناسق وتتناسب لتكوّن فيما بينها وحدة موضوعية موحدة للسورة. أو: أن القرآن الكريم تتناسق موضوعاته الجزئية وتتناسب لتكوّن وحدة موضوعية موحدة، بمعنى أن القرآن الكريم يشعر القارئ له أن جوا واحدا يلازمه مهما تنقل في سوره وآياته وظلاله ومعارفه.

وخلاصة القولين: "إن المقصود بالوحدة الموضوعية وحدة الموضوع، أي أن الموضوع الواحد في القرآن الكريم يرد في مواضيع متفرقة، وبصورة متنوعة، ولمناسبات متعددة، ومع ذلك فلو جمعت آيات الموضوع الواحد لكونت بناء واحدا قويا محكما، ولأصبحت نسيجا واحدا متناسقا بديعا".

والملاحظة الجديرة بالذكر أن بعض الباحثين يسلك طريق الجمع بين الآيات القرآنية وينظر فيها مستوعبا الهدف الأساسي الذي يعبر عن وحدة الموضوع إن في السورة أو في القرآن كله[10]، وبعضهم اعتمد على إبراز الصلة أو المناسبة بين سور القرآن، كأن تأتي سورة من السور تفصيل لما أجمل من سورة أخرى، وهكذا[11] .

فالاختلاف واضح بين المسلكين، وهو إحدى الأمور التي تجعل من الصعب تحديد مفهوم دقيق ومحدد المعالم للوحدة الموضوعية في القرآن، وبشكل أدق: هل الوحدة الموضوعية في القرآن قائمة على وحدة الموضوع أم أنها قائمة على مناسبة السور القرآنية لبعضها البعض والصلة بينها؟

هذا وقد ذكر الشيخ محمد الغزالي نصا، كأني به ألمح دليلا من القرآن على الوحدة الموضوعية، قال: "وأقصد بالمحاور ما تقتضيه أو ما تشير إليه الآية في قوله تعالى: ﴿**ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ**﴾[12] يقول: " فالكتاب متشابه: أي أن المعاني التي يتعرض لها تكثر في سوره، ولا يتم الحديث عن قضية في مكان وينتهي الكلام فيها، فلا يعود إليها الحديث بعد ذلك، بل يستطيع الإنسان أن يشعر بأن المعنى الذي ملأ نفسه في سورة ما، قد ورد في سورة أخرى، نفس المعنى أو قريب منه، مما يشعره بأن معاني القرآن الكريم متشابهة فعلا "[13].

كما أوضح الشيخ سعيد حوى حكمها في العصر بما نصه: "وفي عصرنا الذي كثر فيه السؤال عن كل شيء أخذ كثير من الناس يتساءلون عن الصلة بين آيات القرآن الكريم وسوره، فأصبح الكلام في هذا الموضوع من فروض العصر الذي نحن فيه" (14).

## 2ـ أهمية معرفة الوحدة الموضوعية للقرآن الكريم:

إذا كان الكلام فيها من فروض العصر الذي نحن فيه، معنى ذلك أن لها أهمية كبرى من ورائها، لذا سأورد حاجة الإنسان المسلم إليها من بعض الوجوه:

ا– أنها تخدم قضية إعجاز القرآن الكريم، معنى ذلك أن الوحدة الموضوعية تضع لبنة في صرح الحديث عن إعجاز القرآن ومعجزاته، ويؤكد هذا المعنى الإمام الرازي بقوله في تفسيره لسورة البقرة: "ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة، وفي بدائع ترتيبها، علم أن القرآن كما معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه، فهو أيضا بسبب ترتيبه ونظم آياته"(15). ويقول الدكتور عبد الله دراز مؤكدا ذات المعنى: "لعمري لئن كان القرآن في بلاغة تعبيره معجزات، وفي أساليب ترتيبه معجزات، وفي نبوءته الصادقة معجزات، وفي كل ما استخدمه من حقائق العلوم النفسية والكونية معجزات، لعمري إنه في ترتيب آيه على هذا الوجه لهو معجزة المعجزات"(16).

فالقرآن الكريم قد سما في علوّه إلى شأن بعيد بحيث يعجز الطوق البشري عن الإتيان بمثله، سواء في ذلك بيانه أم بلاغته أم فصاحته أم تشريعه وتنظيمه أم مغيباته، ولا يزال كما كان غضا طريا يحمل راية الاعجاز ويتحدى أمم العالم في يقين وثقة(17).

ب– أنها تخدم قضية دحض شبهات الأعداء والمنكرين من المستشرقين وغيرهم، ويطيب لنا في هذا المقام التمثيل بأحد المستشرقين الذين زعموا أن آيات القرآن لا يجمعها سياق وليس بينها وفاق، وأوصى بإعادة ترتيب القرآن وفق أسباب نزوله، وهو المستشرق الفرنسي بلاشير، يقول" إن إعادة ترتيب السور ينال هنا كامل الأهمية، بأنه يلقي على المصحف أضواء مطمئنة، ويرد وضع النصوص إلى آفاق سهلة الإدراك لكونها مقرونة إلى السياق

التاريخي المعقول" ويعقب ذلك بقوله: والمهم منذ تلك اللحظة أن يقبل قارئ القرآن بالانقياد وتدل التجربة فيما يبدو بعد التقيد بالمراحل الزمنية للترتيب يجعل قراءة القرآن سهلة وممتعة"[18].

والحق الحق بكل بساطة إنه لمن الخطأ في أصل النقد أن نخضع هذا الكتاب الذي تواترت عظمته وأقرّ بها أولوا النهى لِما تعارف عليه أهل عصر أو زمان معين من أصول ومعايير وضوابط للبحث والكتابة، إذ لو وافق القرآن أهل عصر معين فيما كانوا عليه من طرق وأساليب كتابية لم يوافق من بعدهم لما سيصيرون إليه بعد ذلك من تغيير وتجديد، ولو اتفق مع بيئة معينة لم يتفق مع غيرها من البيئات، والناس متفاوتون جدا في مقاييسهم وموازينهم العلمية من عصر لآخر كما هو معلوم، وكما هو معلوم أيضا أن القرآن لكل العصور بجميع خصائصها المميزة. والشيخ سعيد حوى بتفسيره الأساس قد ادخر جهدا وأفرغ وسعا في سبيل إعداد ما ينضح به عن كتاب الله تعالى مثل هذه الشبه الردية، فهذا نصه يصرّح فيه: "إنها لشبهة – القول بأن القرآن لا يجمع أبياته في السورة الواحدة جامع، ولا يجمع بين سورة رابط – فظيعة جدا أن يحاول محاول إشعار المسلم بأن كتاب الله ينزل عن كتب البشر في هذا الشأن، ولقد استطعت بتوفيق الله أن أبرهن على أن كمال القرآن في وحدة آياته في السورة الواحدة، وكماله في الوحدة الجامعة التي تجمع ما بين سوره وآياته على طريقة لم يعرف لها العالم مثيلا" [19].

ت- إنها تسهم في معرفة بعض أسرار القرآن، حيث إن القرآن ليس من شأنه أن يطول باعه في فن ويقصر في فنون أخرى، فهو مهما تنقل بين موضوعات مختلفة لا يشعر القارئ عندئذ بتغيير في أسلوبه أو المستوى أو التناسق التام بينهما، أي النسق الواحد لموضوعات مختلفة[20].

ث- أنها تخدم قضية الفهم للكثير من المعاني التي يدل عليها السياق، ومحل هذه المعاني في البرهان على كثير من القضايا، فالقرآن الكريم له القدرة على أن يلج قلوب الجميع وعقولهم، وهو يخاطب خليطا من الناس متباين الأفهام والمواهب، أي أن القرآن الكريم يفهم كلا منهم حسب مستواه، أي مخاطبة المستويات البشرية في آن واحد.

## ثانيا- الوحدة الموضوعية في القرآن بين الإثبات والإنكار:

### 1- اهتمامات المثبتين للوحدة الموضوعية في القرآن:

من أبرز من اهتم بنظرية الوحدة الموضوعية وحازوا فضل السبق إلى تقريرها، من خلال كتبهم الإمام الرازي (ت606هـ) في تفسيره (مفاتيح الغيب)، والإمام برهان الدين البقاعي (ت 880هـ) في كتابه (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور) والذي اختصره في كتاب (مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور)، والإمام السيوطي (ت 911هـ) في كتابه (تناسق الدرر في تناسب السور) وكتابه (الإتقان في علوم القرآن)، والإمام الألوسي في كتابه (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني) وغيرهم.

ولعل الفخر الرازي هو من أول المتقدمين الذين رأوا أن سور القرآن تتميز بالانسجام الكامل بين آياتها التي تترابط فيها وكأنها وحدة واحدة، يقول في تفسيره لسورة فصلت: " وكل من أنصف ولم يتعسف عَلِم أنّا إذا فسرنا هذه الآية على الوجه الذي ذكرناه صارت هذه السورة من أولها إلى آخرها كلاما واحدا منظما، مسوقا نحو غرض واحد" [21].

كما كان البقاعي مؤمنا بأن القرآن كله وحدة وأن كل سورة جزء من هذه الوحدة القرآنية العامة، وأن آيات كل سورة تتناسق وتتناسب لتكون فيما بينها وحدة واحدة للسور، وقد أدار تفسيره (نظم الدرر) على هذا الأساس وقدم تحليلات رائعة، فهو يقرر أن الإجادة في علم المناسبات ذي الصلة القوية بالوحدة الموضوعية في السور، تتوقف على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها[22].

وممن كان لهم التحليلات والتعبيرات حول هذا الموضوع، الإمام جلال الدين السيوطي، إذ عرض موقف العلماء من قضية أساسية في وحدة الموضوع في السورة، وهي قضية المناسبات في القرآن عامة وبين آيات السورة الواحدة خاصة، وهي – المناسبات –: جعل أجزاء الكلام بعضها آخذ بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم

المتلائم الأجزاء، فمثلا قوله في احتواء سورة البقرة على كثير من المقاصد والأحكام جملة وتفصيلا: " إن سورة البقرة هي أجمع سور القرآن للأحكام والأمثال " (23).

وصفوة القول هنا أن الوحدة الموضوعية قائمة في القرآن الكريم على المناسبة بين الآيات والسور المختلفة الموضوعات، وعلى هذا فإن المتقدمين لم يستوعبوا موضوع الوحدة القرآنية على سبيل الالتزام به في تفسير كامل القرآن أي أنهم وإن كانت لهم محاولات وإسهامات في الموضوع إلا أنها لم تكن على ضوء نظرية كاملة شاملة تحوي مفاتيح الوحدة القرآنية.

في حين جدير بنا أن نقف بعض الشيء عند عدد من المعاصرين ممن كانت لهم إسهامات محمودة في هذا الشأن، على الأقل لتلمس الجديد في الموضوع الذي لم يدركه الأوائل. فأبرز ما يكون القول بها عند السيد قطب في الظلال، إذ كان مولعا بعرض أهداف أساسيات كل سورة قبل البدء في تفسيرها، وبيان شخصية كل سورة وملامحها المتميزة عن بقية السور، والأساليب المتبعة في عرض أفكارها، فما إن ينتهي القارئ من تقديم سيد قطب للسورة حتى يكون قد تعرّف على السورة وأدرك وحدتها الموضوعية.

وممن كانت لهم يد المساهمة في الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية المعلم عبد الحميد الفراهي (ت 1930م)، الذي كتب تفسيرا لبعض السور القرآنية في (نظام القرآن) إذ جعل علم المناسبات جزءا عظيما من مفهوم القرآن، بأن تكون السورة كلاما واحدا، ثم تكون مناسبة بالسورة السابقة واللاحقة، ورأى أن فهم القرآن محول إليه – علم المناسبات – حيث إن منشأ الوجوه الكثيرة في التأويل وعدم الاعتماد على تأويل صحيح هو عدم المعرفة بالنظام، فإنه المعتمد في صحيح التأويل، ورفع شكوى الحيرة. وكذلك الشيخ سعيد حوى في (الأساس) أكد على اشتمال القرآن كله لنظرية الوحدة الموضوعية معتبرا التفسير الموضوعي قدم لأول مرة نظرية جديدة في الوحدة القرآنية وقد تكون الميزة الرئيسة فيه(24).

ونظرية الوحدة الموضوعية كما وضعها الشيخ سعيد حوى قائمة على اعتبار سورة الفاتحة محورا للقرآن الكريم كله، وذلك لاشتمالها على جميع مقاصد الدين بصورة مجملة، وقد فصلت سورة البقرة

ما أجمل في سورة الفاتحة، ثم جاءت سور القرآن بعد سورة البقرة لتفصل في معان واردة في بعض آياتها، يقول الشيخ سعيد حوى: " رأينا أن سورة الفاتحة ذكرت كل معاني القرآن بإجمال وجاءت سورة البقرة لتفصل في الطريقين: طريق المنعم عليهم وطريق المغضوب عليهم والضالين، وجاءت الآيات التسعة والثلاثون من سورة البقرة للتحدث عن المعاني الرئيسية في الهدى والظلال، ثم جاءت بقية السورة لتخدم معنى من المعاني الآتية في هذه التسعة والثلاثين آية"[25].

فهو يؤكد على أنه لا غنى ببعض القرآن عن بعض، فالقرآن كله وحدة متكاملة متناسقة وفي ذلك يقول: " وكل قسم من الأقسام يكمل بقيتها، فقسم المفصل يكمل قسم المثاني، وقسما المفصل والمثاني يكملان تفصيل قسم المئين، والأقسام الثلاثة تكمل تفصيل قسم الطوال، ولهذا كله قواعد وأسرار انتظامه، وكل ذلك قد يربط بخيوط إلى سورة البقرة، فكأنها الأصل الذي ينبثق منها بانتظام فروع أولى ثم فروع ثانية ثم فروع ثالثة ثم فروع رابعة "[26].

ومن أهم الدراسات الموضوعية في هذا المجال رسالة الدكتور محمد حجازي (الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم)، وهي في قسمين: قسم نظري وآخر تطبيقي، إلا أنه لم يتوسع في الجانب النظري رغم أهميته، وقد خلص إلى أن كل سورة لها غرض وهدف تسعى لتحقيقه، وتطرق عدة معان تأخذ من كل ما يناسبها، وكل سورة تكوّن وحدة كاملة مترابطة الأجزاء، لكنه لم يدلل على ذلك بمثال تطبيقي من سور القرآن، واقتصر في الأمثلة التطبيقية على النوع الأول من التفسير الموضوعي[27].

على ضوء هذا يمكن القول إن بحوث القرآن كلها تدور على غرض رئيس واحد، هو دعوة الناس كلهم إلى أن يكونوا عبيدا لله عزّ وجلّ بالفكر والاختيار، أي أن يدخلوا في عبوديته سبحانه طوعا كما أدخلهم فيها بالفطرة والطبع كرها، وهذا هو المقصود الرئيس والأول الذي خاطب القرآن من أجل البشر، هو خلاصة ما ينطوي عليه الدين الحق الذي ألزم الله به عباده منذ أن خلق آدم عليه السلام إلى أن بعث خاتم النبيين محمد – صلى الله عليه وسلم – .

وجملة الموضوعات التي تناولها القرآن بالبحث، والتي تعتبر فروعا عن المقصد الذي ذكرنا، أوردها الشيخ سعيد رمضان البوطي في أربع[28]:

**الأول**: وهو موضوع العقيدة وكليتها، وطريقة عرضه بتقرير كليات العقيدة التي لابد من بالاعتقاد بها من وحدانية الله عزّ وجلّ، وبعث الناس وحسابهم وما إلى ذلك، ثم عرض الأدلة عليها كتنبيه العقول إلى أدلة الكون وما يشيع فيه من دقة النظام ودقة الخلق وجمال التنسيق.

**ثانيا**: هو عرض قصص كثيرة من الأنبياء مع الأمم التي خلت، ويتم ذلك بعرض العبر والآيات المختلفة التي مرت مع التاريخ كي يستنير بها العقل في مجال اعتباره واستدلاله.

**ثالثا**: هو موضوع التشريع، أي أن القرآن وضع الأحكام والنظم التشريعية والتي تشكل في مجموعتها نظاما معينا يضمن الناس مصالحهم وأسباب عيشهم، وباعتبار متعلقات تلك الأحكام عرض القرآن لموضوع التشريع، فمنها ما نص على حكمه بعبارات حاسمة واضحة، ومنها ما اكتفى ببيان حكمه من وجوب أو حرمة أو إباحة، وعرف بها إجمالا، ومنها ما وضع الأحكام الأساسية وقرر بحقه الأحكام الكلية ثم أناط تعيين الإحتمالات ووجوه التطبيق فيه بأعراف الناس وتطورات الزمن والأحوال.

**رابعا**: هو الأخلاق، حيث أن الله تبارك وتعالى أوضح أن هناك تلازما شديدا بين عبودية الانسان لله عزّ وجلّ والسلوك الأخلاقي الفاضل في المجتمع، والطريقة في عرضه قائمة على الربط بين مبادئ العقيدة والمبادئ السلوكية في الحياة، والكشف عن التلازم بينهما، وأن الأخلاقيات دائما نتيجة وثمرة للإيمان بالله عزّ وجلّ بكل ما يستلزمه من ثوابت ومتممات.

ولعل أهم ما يلاحظ على جهود هؤلاء أنه فيهم من جعل البحث في الوحدة الموضوعية للسورة مستقلا عن البحث في الوحدة الموضوعية للقرآن. كما نلمح الاضطراب الذي وقع فيه البعض ممن حاولوا أن يسلكوا منهج البحث لاكتشاف نظام الموضوع الموحد في كل سورة.

وإذن فالوحدة الموضوعية للسورة القرآنية عند بعض المتأخرين قائمة على استيعاب هدفها الأساس الذي سيقت السورة لأجله، بالبحث عن سبب النزول للسورة أو الآيات، والنظر إلى ترتيبها من بين المكي والمدني ودراسة الأسباب القرآنية في عرض الموضوع، والمناسبات بين مقاطع الآيات في السورة، وسيجد الباحث بهذا أن لكل سورة شخصيتها المستقلة. على أن منهم في العصر الحديث كزياد الدغامين لا يرى وحدة الموضوع في السورة أنها تعالَج بإيراد جملة أهدافها وأغراضها في مقدمة، ولا تعني عنده وصف محتويات السورة، ولا تقوم أيضا على مجرد المناسبة بين الآيات المختلفة الموضوعات، بل باستكمال منهج البحث في السورة القرآنية، وتكون المناسبات حلقة في وحدة الموضوع في السورة، وخطوة في منهج البحث.

## 2ـ إنكار الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم.

نزل القرآن الكريم من أجل الإنسان وجاء بعقيدة وشريعة لتصلح حياته فكرا وسلوكا، وكل تصنيف لآيات القرآن ينبغي أن تتركز العناية فيه على الإنسان وقضاياه وواقعه من حيث كونه خليفة الله في الأرض. فكان هذا الإتجاه ذا أهمية كبرى في البحث حيث ربط التفسير بشيء من قضايا الواقع، وبالرغم من ذلك فقد لقي ذلك الإتجاه إنكارا من بعض المستشرقين فضلا عن بعض علماء المسلمين!!.

فلقد ظن بعض المستشرقين أن القرآن الكريم خال من التبويب والترتيب والتنسيق الذي اعتاد الكتاب إتباعه في التأليف والكتابة، وحسبوا أن ظاهرة الوحدة الموضوعية فيه تدل على بساطته وبدائيته، وعدم عمقه في أسلوبه وبيانه، ومرد ذلك للزمن الذي نزل فيه القرآن على حد زعمهم.

إلا أن القرآن الكريم لم ينزله الله جل جلاله ليوافق عصرا بعينه في أصول ومعايير البحث والكتابة لديه، إذ لو كان كذلك لذهبت قيمته بعدم موافقته لأساليب وطرق كتابية لعصرآخر لحق العصر السابق فيما بعد، مع العلم أن البيئات تتباين وتتفاوت في مقاييسها وموازينها العلمية كلما تمادى الزمان عن بعضها.

ولعل من بين الأسباب التي أدت لإنكار الوحدة الموضوعية، الطريق التجزيئي لتفسير سور القرآن الذي سلكه المفسرون، حيث عنوا بتقسيم السور القرآنية إلى أرباع وأجزاء متساوية تقريبا في عدد الآيات ولم يعنوا بجمع الآيات الواردة في غرض واحد تحت اسم يجمعها. أيضا الإضطراب الذي وقع فيه بعض العلماء الذين حاولوا أن يسلكوا منهج البحث لاكتشاف نظام الموضوع الموحد في كل سورة.

ونشير هنا إلى أن الدغامين نقل أسبابا فيها من القوة والواقعية بحيث لا تترك لمفسر معاصر حجة أو شبهة في انصرافه عن نظام القرآن عامة ونظام سوره خاصة على حد تعبيره، قد ذكرها عبد الحميد الفراهي والتي دفعت بعض العلماء القدامى إلى إنكار الوحدة الموضوعية أو (نظام القرآن) وهي أربعة[29]:

- تبرئة كلام الله عن كل عيب وشين، ولا شك أنه ظاهر النظام والترتيب في كثير من المواضع، ولكنهم لو ادعوا أن كله منظم والنظم مراعى فيه، لاضطروا في مواضع إلى القول بعدمه، وذلك لغموضه ودقته، فتركوا هذا المسلك ولم يحولوه إلى قصور أفهامهم.
- نزول القرآن منجما مفرقا فلا يطلب فيه نظام.
- إكثار الوجوه في التأويل، وإكثار الجدل، وذلك بأن النظم يجري على وحدة، فبحسب ما تكثرت الوجوه تعذر استنباط النظام.
- تحزّب الأمة في فرق وشيع قد ألجأهم إلى التمسك بما يؤيدهم من الكتاب، فراق لهم تأويله الخاص، سواء كان بظاهر القول أم بإحدى طرق حمل الكلام على باطن المحتملات، فلكل حزب مذهبه، وحينئذ لا يمكن رعاية النظام.

## ثالثا- الوحدة الموضوعية في سورة القيامة:

تعتبر سورة القيامة في هذا المقام بمثابة المثال لتوضيح المقال آنفا من جهة، ومن جهة ثانية لإدراك روعة الإعجاز القرآني من خلال صلة الوحدة الموضوعية بآي العقيدة الإسلامية، كما

هو الحال في هذه السورة التي تؤسس لأصل من أصول الدين مفاده الإيمان باليوم الآخر. وقبل بيان الغرض لابد من المرور على أهم العناصر بشأن السورة للاستفادة على نحو أيسر وأقرب.

### 1ـ ما يتعلق بالسورة من حيث التسمية والنزول:

#### اـ تسميتها:

عنونت هذه السورة في المصاحف وكتب التفسير بـ (سورة القيامة)، وهو اسم توقيفي، وأما عن اسمها الاجتهادي يقال لها (سورة لا أقسم) لافتتاحها بالقسم الإلهي بها [30]. وافتتاح السورة بالقسم مؤذن بأن ما سيذكر بعده مهم لتستشرق له نفس السامع كما تقدم في عدة مواضع من أقسام القرآن، وكون القسم بيوم القيامة براعة استهلال لأن غرض السورة وصف بيوم القيامة، وفيه أيضا كون المقسم به هو المقسم على أحواله تنبيها على زيادة مكانته عند المقسم[31].

#### ب- البيئة التي نزلت فيها:

سورة القيامة مكية بالاتفاق، قال الألوسي: "هي مكية من غير حكاية خلاف ولا استثناء"[32]، وعدّت الحادية والثلاثين في عداد نزول سور القرآن، نزلت بعد سورة القارعة، وقبل سورة الهمزة. وعدد آياتها عند أهل العدد من معظم الأمصار تسعا وثلاثين آية، وعدها أهل الكوفة أربعين، والخلاف في ﴿**لتعجل به**﴾[33].

### 2ـ المناسبات المتعلقة بالسورة:

#### اـ مناسبة السورة لما قبلها:

إن السورة التي سبقت سورة القيامة وفق ترتيب المصحف هي سورة المدثر وهي تتعلق بها لاشتمالها على حديث الآخرة، ففي السورة المتقدمة قال تعالى مبينا السبب الأصلي في عدم التذكرة وهو إنكار البعث ﴿**كَلَّاۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ**﴾[34]، ثم ذكر في هذه السورة دليل إثبات البعث، ووصف يوم القيامة وأهواله وأحواله[35]. قال الألوسي: " ولما قال سبحانه وتعالى

في آخر المدثر: ﴿كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾ بعد ذكر الجنة والنار وكان عدم خوفهم إياها لإنكارهم البعث ذكر جل وعلا في هذه السورة الدليل عليه بأتم وجه، ووصف يوم القيامة وأهواله وأحواله، ثم ذكر ما قبل ذلك من خروج الروح من البدن، ثم ما قبل من مبدأ الخلق على عكس الترتيب الواقعي"[36].

**ب- مناسبة السورة لما بعدها**:

إن السورة التي تلي سورة القيامة وفق ترتيب المصحف هي سورة الإنسان، والصلة بينهما من بعض الوجوه[37]:

- في سورة القيامة المتقدمة أجمل وصف حال الجنة والنار، وجاء فصل أوصافهما في سورة الإنسان.
- ذكر الحق سبحانه في سورة القيامة الأهوال التي يلقاها الفجار في يوم القيامة، وذكر في سورة الإنسان ما يلقاه الأبرار من النعيم.
- جاء في آخر سورة القيامة مبدأ خلق الإنسان من نطفة، ثم جعل منه الصنفين: الرجل والمرأة، ثم ذكر في بداية سورة الإنسان خلق آدم من نطفة أمشاج، وجعله سميعا بصيرا، ثم هدايته السبيل، وما ترتب عليه من انقسام البشر إلى شاكر وكفور.

**ت- المناسبة بين اسم السورة وموضوعها**.

إن موضوع السورة بوجه عام حول تقرير البعث والجزاء أصلا إلى جانب أصول الدين والإيمان، وهو غرضها الذي وصف بيوم القيامة الذي استهلت السورة بالقسم به[38]، فالصلة ظاهرة جلية بين تسميتها وغرضها الرئيسي.

**3- معنى عام للسورة**:

سورة القيامة كباقي السور المكية جاءت لتقرير أحد أصول الدين والإيمان، وهو مسألة البعث والجزاء، حيث عنيت بإثبات البعث والمعاد وما سبقه من مقدمات الموت وبدأ الخلق على عكس ما هو عليه في الواقع.

– ففي الآيات الست الأوائل افتتحها القرآن بالقسم بيوم القيامة وبالنفس اللوامة، على أن البعث حق لا ريب، والرد على من أنكره[39].

– ثم أخبر بعدها عن حتمية وقوع يوم القيامة، نافيا أدنى ريب في حدوثه، إذ ذكر طرفا من أمارات ذلك اليوم المهول[40].

– وفي الآيات الموالية تحدثت السورة عن اهتمام الرسول بحفظ القرآن عند تلاوة جبريل عليه، وبيانه بنحو شامل تام[41].

– وبعدها أخبر الحق سبحانه في السورة عن انقسام الناس في الآخرة إلى فريقين: سعداء، وجوههم مضيئة متلألئة بالأنوار، ينظرون إلى رب العزة جل وعلا، وأشقياء، وجوههم مظلمة عابسة، يعلوها الذل والقترة، تنتظر نزول وداهية عظمى بها[42].

– ثم ذكرت السورة شدائد الإحتضار والموت وأهواله، وحال المرء عند كروبه ومضايقته[43].

– وختمت السورة الكريمة بإثبات الحشر والمعاد بالأدلة الحسية الواقعة والبراهين العقلية، من بدأ الخلق والإعادة أهون من البداءة[44].

**رابعا- تقرير عقيدة البعث والجزاء ضمن أصول الدين:**

معنى هذا أن البعث والجزاء ركن أساس من أركان الإيمان المعلومة من الدين بالضرورة، ويشكل إحدى اللبنات التي يقوم بها بناء العقيدة الإسلامية، ويبدو من إمعان النظر في معاني سورة القيامة بوجه عام من مطلعها إلى خاتمتها أنها جاءت لتحقيق ذلك المعنى والتأكيد عليه، بل هو الموضوع الواحد والغرض الرئيس الذي حوته السورة بجميع مضامينها.

وسيتم بيان ذلك -إن شاء الله- بتقسيم السورة إلى مقاطع ثلاثة، تقسيما على أساس المعنى لا على أساس التشابه في اللفظ، وهو الأساس نفسه الذي اعتمده الشيخ سعيد حوى في (الأساس في التفسير). ثم التعريف بمضمون كل مقطع على حدى، معتمدا على التحليل والتفسير للآيات القرآنية خلال كل مقطع، خلوصا إلى تحديد الموضوعات الفرعية ووصولا إلى

الموضوع الأساس الذي سيقت السورة لأجله، دون الإغفال عن إدراك المناسبات بينها. وحددت المحاور الرئيسة للسورة بما يلي:

- بيان قدرة الله تبارك وتعالى على البعث والمعاد، وذكر أماراته.
- بيان إهتمام النبي صلى الله عليه وسلم بحفظ القرآن أثناء الوحي، وإختلاف أقوال الناس في الآخرة.
- التذكير بمقدمات الموت وبدء الخلق، والزجر عن التفريط في الدنيا.

**المحور الأول: في بيان قدرة الله تبارك وتعالى على البعث والمعاد، وذكر أماراته:**

يبدأ المقطع الأول المتضمن لهذا المحور من الآية الأولى إلى الآية الخامسة عشرة، قوله تعالى: **﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ۝٤ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَـٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۝٦ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝١٢ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣ بَلِ ٱلْإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥﴾**.

في هذا المقطع آيتان ذكر سبب نزولهما عند المفسرين وهي قوله تعالى: **﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴾**. ذكر الألوسي: "والمراد بالإنسان عدّي بن أبي ربيعة ختن الأخنس بن شريف وهما اللذان كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول فيهما: (اللهم اكفيني جاري السوء) فقد روي أنه جاء إليه –عليه الصلاة والسلام–فقال: يا محمد حدثني عن يوم القيامة متى يكون وكيف يكون أمره؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك يا محمد ولم أومن به، أو يجمع الله تعالى هذه العظام؟

فنزلت، وقيل: أبو جهل، فقد روي أنه كان يقول: أيزعم محمد أن يجمع الله تعالى هذه العظام بعد بلائها وتفرقها فيعيدها خلقا جديدا؟ فنزلت"[45].

**البيان لآيات هذا المقطع**:

افتتحت الآيات بالقسم بيوم القيامة وضم النفس اللوّامة إليه، والقسم بشيء لتعظيمه وتفخيمه، ففي الإقسام: بيوم القيامة على وقوع يوم القيامة مزيد تقرير وتأكيد لوقوعه، وفي إسناد النفس اللوّامة– التي تلوم صاحبها على ترك الطاعات وفعل الموبقات – إلى يوم القيامة تنبيه إلى أن الغرض من القيامة هو إظهار أحوال النفس ومراتبها في السعادة وضدها. وقد اشتهر في كلام العرب زيادة (لا) قبل القسم لتأكيد الكلام. فالصحيح أنه سبحانه أقسم بهما جميعا و(لا) صلة فيهما أي أقسم بيوم القيامة وبالنفس اللوّامة، وليس على معنى أنه سبحانه أقسم بيوم القيامة ولم يقسم بالنفس الوّامة[46].

وقوله (قادرين) تأكيد القدرة، لأنه يستحيل جمع العظام بدون القدرة الكاملة التي نبه عليها بقوله: ﴿ **بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ** ﴾ لأن من قدر على ضم سلاميات الأصبع مع صغرها ولطافتها كما كانت، كان على ضم العظام الأكبر أقدر، وإنما خص البنان وهو الأنملة بالذكر لأنه آخر ما يتم به خلقه، فذكره يدل على تمام الأصبع، وتمام الأصبع يدل على تمام سائر الأعضاء التي هي أطرافها، والمراد بالتسوية أنه قادر على رد العظام والمفاصل إلى هيئتها الأولى، وعلى ضد ذلك. قيل: ذكر العظام وأراد نفسه لأن العظام قالب النفس البشري لا يستوي الخلق إلا باستوائها[47].

ثم بيّن الحق سبحانه أن الإنسان يريد في الحقيقة أن يدوم على فجوره في مستقبل أيامه، فيقدم الذنب، ويؤخر التوبة حتى يأتيه الموت على شر أحواله، قال تعالى: ﴿ **بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَـٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ** ﴾، وبعدها أتى قوله تعالى: ﴿ **يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ** ﴾ مستأنفة للتعجب من حال سؤالهم عن وقت يوم القيامة، وهو سؤال استهزاء لاعتقادهم استحالة وقوعه. ويجوز أن تكون

هذه الجملة متصلة بالتي قبلها على أنها بدل اشتمل منها، لأن إرادته الاسترسال على الفجور يشتمل على التهكم ليوم البعث(48).

وفي الآيات الموالية يؤكد الله تبارك وتعالى أن معالم الكون تتبدل يوم القيامة، وتظهر علامات دالة عليه، منها حيرة البصر ودهشته من الأهوال، وذهاب ضوء القمر دون عودة، وذهاب ضوء الشمس والقمر معا، أي جمع الله بينهما في ذهاب ضوئهما، وحينئذ يحار الإنسان وهو المؤمن والكافر لهول ما يشاهد فيقول: أين المفر؟ ويحتمل ذلك وجهين: أحدهما – أين المفر من الله استحياء منه؟، والثاني – أين المفر من النار حذرا منها فيجيبه الحق سبحانه سلفا في الدنيا ﴿ **كَلَّا لَا وَزَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ** ﴾، ولابد من تقدير مضاف في قوله (إلى ربك) أي إلى حكم ربك، أو وإلى ربك جنته أو ناره، فهناك استقرار العباد على الدوام(49).

إن مصير الإنسان في الآخرة محدد بحسب أعماله في الدنيا، التي قدمها من خير أو شر، قديمها وحديثها، أولها وآخرها، صغيرها وكبيرها، كما قال تعالى: ﴿ **يُنَبَّؤُاْ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ** ﴾، فلا مكان للاعتذار والإنكار، ولو اعتذر يومئذ بباطل لا يقبل منه، لأنه عندئذ شهيد على نفسه، عالم بما فعله، فهو حجة بينة على أعماله، قال تعالى: ﴿ **بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ** ﴾.

قال الشيخ الطاهر بن عاشور في هذه الآية: " إضراب انتقالي، وهو من مضمون: ﴿ **يُنَبَّؤُاْ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ** ﴾، إلى الإخبار بأن الكافر يعلم ما فعله، لأنهم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون، إذ هو قرأ كتابه فقال: ﴿ **وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ** ﴾ (50) "(51).

وينبغي التنبيه إلى المناسبة بين القيامة والنفس اللوامة –بين الآيتين الأولى والثانية–حيث أن وجه الصلة بينهما من حيث أن المقصود من إقامة القيامة إظهار أحوال النفس اللوامة من السعادة والشقاوة.

وزبدة القول أن إنكار البعث يتولد من شبهتين: الأولى بأن يستبعد الإنسان اجتماع الأجزاء بعد تفرقها وتلاشيها، والثانية –أن ينكر المعاد بالهوى واسترسال الطبع والميل إلى الفجور. كلتا الشبهتين أجاب الحق سبحانه عنهما ردا على إنكار المنكرين لعقيدة البعث والجزاء الجاحدين بها وقد استيقنتها أنفسهم.

**المحور الثاني: في بيان إهتمام الرسول –صلى الله عليه وسلم- بحفظ القرآن أثناء الوحي، واختلاف أحوال الناس في الآخرة.**

تبدأ آيات هذا المقطع المتضمن لهذا المحور من الآية السادسة عشرة إلى الآية الخامسة والعشرون: قوله تعالى: ﴿ **لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ۝٢١ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ۝٢٤ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ۝٢٥** ﴾.

– سبب نزول قوله تعالى: ﴿ **لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ** ﴾ إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا نزل الوحي يحرك به لسانه يريد أن يحفظه، فأنزل الله تعالى الآية [52].

**-البيان لآيات المقطع:**

إن الآيات الأربع الأوائل من هذا المقطع اشتملت على ثلاثة أحوال، وهي أمور تكفل الله تبارك لنبيه محمد – صلى الله عليه وسلم– بها لحفظ القرآن إلى الأبد، بأن جمع القرآن في صدر المصطفى، وتلاه له على لسان جبريل ويسر له أداءه كما أنزل، ووضح له معناه بتفسيره وبيانه له، لما فيه من الحدود، والحلال والحرام، والوعد والوعيد، والمشكلات.

ثم انتقل البيان إلى حال الإنسان السابق المنكر للبعث موبخا له وقارعا على إنكاره ذلك، وما ذلك إلا بسبب إيثار الدار والحياة العاجلة فيها، وترك الاستعداد للآخرة والعمل لها. قال تعالى: ﴿ **كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ** ﴾.أي ارتدوا أيها المشركون، فليس الأمر كما زعمتم أن لا بعث ولا حساب ولا جزاء، بل أنتم قوم تحبون الدنيا الفانية، وتتركون الآخرة

الباقية. ولفظ (كلا) عند سائر المفسرين معناه: حقا، أي حقا يحبون العاجلة ويذرون الآخرة.. ثم أبان الله تعالى حال المؤمنين وحال الكافرين في الآخرة؛ فوجوه المؤمنين في الجنة بهية مشرقة مسرورة ترى رب العزة جل في علاه، ووجوه الكفار الفجار كالحة كاسفة عابسة، محرومة من النظر إلى وجه الله الكريم، مستيقنة أنه سيحل بها عذاب شديد، وداهية عظيمة[53].

ويطيب لنا أن نذكر في هذا المقطع المناسبة بين مضمونه ومضمون المقطع السابق، حيث إن الله تبارك وتعالى بعد أن ذكر أن منكر القيامة والبعث معرض عن آيات الله تعالى ومعجزاته، وأنه قاصر شهواته على الفجور، غير مكترث لما يصدر عنه، ذكر حال من يثابر على تعلم آيات الله وحفظها وتلقفها، والنظر فيها وعرضها على من ينكرها، رجاء قبوله إياها. فتلك الآيات تضمنت حال الإعراض عن آيات الله، وهذه تضمنت المبادرة إليها بحفظها، وذكر الحق سبحانه أن حب الإنسان للدنيا العاجلة وترك الآخرة سبب إنكار البعث، على أن الإنسان بطبعه يميل إلى الفجور وحب الدنيا وإيثارها.

**المحور الثالث: في التذكير بمقدمات الموت وبدء الخلق والزجر عن التفريط في الدنيا.**

تبدأ آيات هذا المقطع المتضمن لهذا المحور من الآية السادسة والعشرين وتنتهي بآخر آية من السورة: قوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾.

– سبب نزول قوله تعالى: ﴿ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ ﴾ فيه خلاف لكن المؤدى واحد، أنها نزلت في أبي جهل. قال الألوسي: " قال قتادة: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج من المسجد فاستقبله أبو جهل على باب بني مخزوم فأخذ رسول الله فلبب أبا جهل بثيابه وقال له: أولى

لك فأولى ثم أولى لك فأولى، قال أبو جهل يتهددني محمد، فوالله إني لأعز أهل الوادي، وأنزل الله تعالى: ﴿ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ ﴾ كما قال لأبي جهل" [54].

**البيان لآيات المقطع**:

في أوائل آيات هذا المقطع ذكّر الناس جميعهم بشدة الحال وصعوبة الأمر عند نزول الموت، فعند الاحتضار يجتمع على الناس أمران: الناس يجهزون جسده، والملائكة يجهزون روحه، ويجتمع عليه أيضا شيئان محزنان: فراق الدنيا والأهل والولد حين معاينة الملائكة، واتصال شدة الدنيا بشدة أول الآخرة، فتلتقي الشدة بالشدة إلا من رحمه الله، أي شدة كرب الموت بشدة هول المطلع على الآخرة[55].

وفي الآية الكريمة ﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ﴾ تعبير اليقين بالظن، لأن الروح مادامت في البدن يطمع صاحبها في الحياة، فلا يحصل له يقين الموت، بل الظن الغالب مع رجاء الحياة، والآية دالة على أن الروح جوهر قائم بنفسه، باق بعد موت البدن، لأنه تعالى سمى الموت فراقا، وهو يدل على أن الروح باقية، فإن الفراق والوصال صفة، والصفة تستدعي وجود الموصوف[56].

ثم جمع في قوله تعالى: ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴾ بين ترك العقيدة أو أصول الدين في أنه ما صدق بالدين ولكن كذب به، وبين إهمال فروع الدين في أنه ما صلى، ولكنه تولى وأعرض وبين الإساءة لطبيعة الدنيا وسلوكها في أنه ذهب إلى أهله يتمطى ويتبختر، ويختال في مشيته، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴾ [57] ومن كان ذاك شأنه فقد هدده الله تعالى ووعده وعدا عليه بقوله: ﴿أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ ﴾ والمعنى: ويل لك وأهلكك الله[58].

وفي آخر السورة أقام الله دليلين لإثبات الحشر والبعث والقيامة، وللتأكيد على ما جاء في أول السورة، حيث قال جل شأنه: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ يعني دون أمر ونهي في الدنيا أو دون ثواب وعقاب الآخرة.أي: لابد في الحياة من تكليف لتنظيم الحياة وتهذيب الأنفس، ودرء المفاسد، والتكليف لا يحسن ولا يليق بالكريم الرحيم إلا إذا كان هناك دار الثواب والبعث. قال ابن القيم: " فأنكر سبحانه على من زعم أنه يترك سدى إنكار من جعل في العقل استقباح ذلك واستهجانه، وأنه لا يليق أن ينسب ذلك إلى أحكم الحاكمين" [59].

ثم استدل بالخلقة الأولى على الإعادة بقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾
وهذا استدلال بالخلق الأول على الإعادة، والأمران على الله سواء، فمن قدر على بدء الخلق وإيجاد الإنسان، فهو أقدر على إعادته إلى الحياة مرة أخرى، ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[60].
وغيرها من المواضع.[61]

والسؤال هاهنا: هل من مناسبة بين آيات هذا المقطع ومضامينها وبين مضامين المقطعين السابقين؟

والجواب: نعم، فبعد أن بين الله تعالى أحوال الآخرة، وهي القيامة العظمى ووصف ما فيها من أهوال، وما عليه حال السعداء وحال الأشقياء، بين أن الدنيا لا بد لها من نهاية ووصول إلى تجرّع مرارة الموت وهي القيامة الصغرى، لأن الموت أول منزلة من منازل الآخرة، فإذا لم يؤمن الكافر بأمر القيامة لا يمكنه أن يتخلص من الموت، وتجرّع آلامه، وتحمّل آفاته. ثم استدل الله تعالى لإثبات البعث بأمرين:

**الأول**: أن العدل يقضي بأنه لا بد من الجزاء على الأعمال، حتى لا يتساوى الطائع والعاصي، وذلك لا يكون إلا في الآخرة. **والثاني**: أن الله تعالى كما قدر على بدء الخلق، فهو قادر على الإعادة والبعث، بل إن الإعادة أهون في تقدير البشر(62).

ولقد قال تعالى في بداية السورة ﴿ **بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ** ﴾، وقال سبحانه في آخرها: ﴿ **فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ** ﴾، فالصلة واضحة جلية بين مقدمة السورة وخاتمتها وبين آياتها وموضوعها، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، أشرنا في ثنايا هذا البحث إلى وجود آيات كثيرة في سور القرآن اعتبرت نظيرة لكثير من آيات سورة القيامة، مما يدل على أن الصلة والمناسبة قائمة بين الآيات القرآنية كلها بشكل متناسق كتناسق شبكة يشد خيوطها بعضها بعضا.

## خاتمة

لا يسعنا في خاتمة هذا العمل القليل في رحاب القرآن العظيم إلا أن نحوصله في أهم النتائج، ممثلة فيما يلي:

- نخلص إلى أن سورة القيامة تعالج موضوعا واحدا "البعث والجزاء" الذي هو أحد أركان الإيمان، وتركز بوجه خاص على القيامة وأهوالها والساعة وشدائدها، وعن حالة الإنسان عند الاحتضار، وما يلقاه الكافر في الآخرة من الشقاوة والمتاعب، وتستدل ببدء الخلق في آخرها لتأكيد وإثبات البعث كما في مقدمتها.
- الإحاطة بأسرار القرآن الكريم وجوانب إعجازه أمر عسير، بل مستحيل، تقف دونه قدرات البشر جميعا.
- أهمية دراسة الوحدة الموضوعية للقرآن الكريم لتغطية وجه عام من وجوه الإعجاز، ولمواجهة شبهات الأعداء المثارة حول الموضوع، وللإعانة على فهم كلام الله عزّ وجلّ.
- القرآن الكريم بجميع خصائصه العامة جاء لتلبية لحاجات كل العصور دون استثناء.

- إن فكرة الوحدة الموضوعية في القرآن لم تتضح ولم تطبق إلا في هذا العصر، نظرا لعدم رواج اهتمامات المتقدمين بشكل كبير في تفاسيرهم التي صرحوا بها فيها.
- هذه النظرية مع أنها لا تخلو من التكلف إلا أنها جهد مشكور في خدمة كتاب الله عزّ وجلّ، وتسجيل لخواطر وتأملات المفسرين وجولاتهم في رحاب القرآن.

تم بحمد الله وتوفيقه..وسبحانه وتعالى أن يمنحنا رضاه والإخلاص لوجهه الكريم، وأن يختم لنا بصالح الأعمال، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

**الهوامش**:

(1) سورة فصلت، 42.

(2) محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، 228/2-318.

(3) بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، 93/2-107.

(4) القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، 258/1-272.

(5) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل بيروت، 90/6. وابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ، 449/3.

(6) المنجد في اللغة العربية المعاصرة، دار دمشق بيروت، ط 01، 1510-1511.

(7) المصدر السابق، 1536.

(8) معجم مقاييس اللغة، 117. ولسان العرب، 396.

(9) حسن جوادة، الوحدة الموضوعية لسورة يوسف عليه السلام، دار الكتب العلمية، القاهرة 1976، 25.

(10) محمد محمود مجازي في رسالته (الوحدة الموضوعية في القرآن) مثلا.

(11) سعيد حوى في تفسيره (الأساس) مثلا.

(12) سورة الزمر الآية 23.

(13) محمد الغزالي، نماذج من التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، منشورات المركز الثقافي الإسلامي في الجزائر.

(14) سعيد حوى، الأساس في التفسير، 21/1.

(15) مفاتيح الغيب فخر الدين الرازي، المطبعة البهية القاهرة، 1375هـ، 138/7.

(16) عبد الله دراز، النبأ العظيم، مطبعة السعادة 1389هـ، 209.

(17) محمد سعيد البوطي، من روائع القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1420هـ، ط03، 125. والزرقاني، مناهل العرفان، دراسة وتقويم خالد بن عثمان السبت، دار بن عفان، مصر، 1422هـ، 2/ 228.

(18) (القرآن، نزوله وتدوينه وترقيته وتأثيره)، ترجمة رضا سعادة، دار الكتاب اللبناني 1974م، ط07، 23، 24.

(19) الأساس في التفسير، 27/1

(20) موسى إبراهيم، تأملات قرآنية، دار عمار، الجزائر، 1988، 110.

(21) الرازي، مفاتيح الغيب، دار الفكر، بيروت، 1981، 134/27.

(22) مصطفى مسلم، مباحث في التفسير الموضوعي، دار القلم، دمشق، 1418هـ، 57. ومحمد الدغامين، منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، دار البشير، عمان 1416هـ، ط01، 102.

(23) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1408هـ، 108/2. وتناسق الدرر في تناسب السور، 39.

(24) الأساس، 21/01.

(25) المصدر السابق، 11/ 6770.

(26) المصدر السابق، 5728/10.

(27) محمد حجازي، الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، محمد محمود حجازي، مطبعة المدني القاهرة، 405.

(28) البوطي، من روائع القرآن ( تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عزّ وجلّ)، 163.

(29) زياد الدغامين، منهجية البحث في التفسير الموضوعي، 120، 121.

(30) الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، 233/16. ووهبة الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة الشريعة والمنهج، دار الفكر، دمشق، ط1، 1411هـ، 29 /249.

(31) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير للشيخ الطاهر بن عاشور، طبعة الدار التونسية 1984، 337/29.

(32 الألوسي، روح المعاني، 233/16.

(33) المصدر السابق، 233/16، 236. والتحرير والتنوير، 236/29.

(34) سورة المدثر، 53.

(35) السيوطي، تناسق الدرر في تناسب السور، 09. والتفسير المنير، 29 / 249.

(36) روح المعاني، 233/16.

(37) التفسير المنير، 29 /279.

(38) التحرير والتنوير، 29 /337.

(39) سورة القيامة، 01-06.

(40) سورة القيامة، 07-15.

(41) سورة القيامة، 16-19.

(42) سورة القيامة، 20-25.

(43) سورة القيامة، 26- 35.

(44) سورة القيامة، 36-40.

(45) روح المعاني، 236/16. وتفسير القرطبي 36/19.

(46) التفسير المنير، 254/29. والصابوني، صفوة التفاسير، دار الصابوني، القاهرة، ط09، 03 / 484. والبغوي، معالم التنزيل، تحقيق عبد الرحمن العك، دار المعرفة، بيروت 1407هـ، ط2، 04/ 421.

(47) التفسير المنير، 255/29. وتفسير البغوي: 04 /421.

(48) التحرير والتنوير، 343/29.

(49) التفسير المنير، 256/29، 258.

(50) سورة الحاقة، 25-26.

(51) التحرير والتنوير الجزء 29 / 347.

(52) التفسير المنير 262/29، والتحرير والتنوير 349/29.

(53) التفسير المنير، 264/29، 265، 269. وصفوة التفاسير، 03 /486.

(54) روح المعاني، 364/16

(55) التفسير المنير، 277/29.

(56) تفسير الرازي، 331/03.

(57) سورة المطففين الآية 31.

(58) التفسير المنبر، 274/29.

(59) التفسير القيم لابن القيم: تحقيق محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية بيروت، 504.

(60) سورة يس، 77 – 79. وأيضا: سورة مريم، 66-67.

(61) التفسير المنير، 277/29 - 278.

(62) المصدر السابق، 272/29.